الفصل الثامن

المستشرقون

جيش آخر من جيوش الحرب الباردة التى خاضتها - وتخوضها - أوروبا ضد الإسلام والمسلمين . جيش سلاحه : القرطاس والقلم . وقذائفه الكلمات . وغزوه موجّه إلى العقول والقلوب . وهدفه إحداث خلل فى العقائد والسلوكيات والأخلاق . والمستشرقون والمبشّرون صنوان لشجرة واحدة - ملعونة - هى « الحقد على الإسلام والمسلمين » .

والفرق بينهما أن نشاط المبشّرين موجّه إلى العامة : الشعوب ، أما المستشرقون فقد وجّهوا نشاطهم - منذ وُجدوا - إلى الخاصة : المثقفين . وتستروا وراء شعار : البحث العلمى الدقيق المَنظّم . وهم أبعد ما يكون عن العلم والنظام .

وهناك فرق آخر ذو خطر بين المبشّرين والمستشرقين ، وهو أن المبشّر يُوجّه نشاطه - غالباً - إلى إفساد عقائد المسلمين وإثارة الشكوك حولها ، ويُشوّه حقائق الإسلام بين المسلمين . أما المستشرق فمع اتفاقه فى الهدف المشار إليه مع المبشّر فإن له مهمة أخرى لا يوليها المبشّر كبير اهتمام ، لأنها ليست من اختصاصه حسب الخطة الموضوعة . وإنما هى من صميم عمل المستشرق . وهى : تشويه حقائق الإسلام بين الشعوب المسيحية ، وبخاصة الشباب وتصويره فى صور جد منفرة .

والقصد من هذا هو « تحصين أوروبا ضد الإسلام » حتى لا يفلح الإسلام فى غزو أوروبا مرة أخرى مثلما أفلح فى غزوها « فكرياً وعلمياً » قبل الحروب الصليبية .

وقد نجح المستشرقون إلى حد ما فى هذا المجال فجعلوا شباب أوروبا ينظر إلى الإسلام على أنه دين « التوحش والتخلف » بل « ودين الوثنية » ؟!

ثم نظروا إلى « الشعوب الإسلامية » نظرة احتقار وأطلقوا عليهم لقب « البرابرة » .

* *

● متى ولماذا نشأ الاستشراق ؟

الأسباب التى أدّت إلى قيام الاستشراق هى نفس الأسباب التى أدّت إلى تكثيف نشاط المبشّرين والاهتمام به فى أوروبا على المستوى الدينى ، والمستوى السياسى . وجميع هذه الأسباب يرجع إلى فشل الحروب الصليبية فى القضاء على الإسلام وعلى العالَم الإسلامى . فهو - أى الاستشراق - أحد البدائل التى اهتدت إليها أوروبا لمواجهة الإسلام حين ظهر لها أن الحروب المسلّحة باءت بالفشل أمام قوة الجهاد الإسلامى التى حسمت الأمور بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى إبّان الحروب الصليبية .

* *

● إحصاء لعمل المستشرقين :

وجيش المستشرقين دائم الحركة والعمل ضد الإسلام ، حتى لقد أحصى الدكتور إدوار سعيد مؤلفاتهم ضد الإسلام خلال مائة وخمسين سنة فوجدها بلغت ٦٢ ألف مجلد ؟! كلها ضد العروبة والإسلام أفرزتها المطابع ودور النشر فى الغرب فيما بين عامى (١٨٠٠ - ١٩٥٠) .

والإسلام عند المستشرقين متهم دائماً . وقد أحسن التعبير عن هذا المعنى الأستاذ محمد أسد فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » حين قال :

« ويظهر فى جميع بحوثهم - بحوث المستشرقين - على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يُعالَج على أنه موضوع بحثٌ فى البحث العلمى . بل على

أنه متهم يقف أمام قضاته . إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدّعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة . وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شئ من الفتور اعتبارالأسباب المخففة » (ص ٥٣) .

ثم يُشبِّه الأستاذ محمد أسد موقف المستشرقين هذا من الإسلام بصورة رائعة فيقول :

« وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى قد أنشأتها الكنيسة فى القرون الوسطى . أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً فى القرائن بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها .. » (ص ٥٤) .

هذا العداء المستحكم من مستشرقى أوروبا ضد الإسلام ، يقول عنه الأستاذ محمد أسد إنه ليس خاصاً ببلد دون بلد ، بل هو عام فى كل ما كتبه مستشرقو أوروبا :

« إنك تجده فى إنكلترا وألمانيا وفى الروسية وفرنسا وفي إيطالية وهولندا . وبكلمة واحدة : فى كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام » .
(ص ٥٤)

ولا يختلف باحث فى هذا الموضوع أن قيام الاستشراق كان بعد الحروب الصليبية بشكل واضح ، وهذا لا يمنع من وجود بذور للاستشراق قبل الحروب الصليبية . ومن الممكن القول بأن الاستشراق المعادى للإسلام بشكل كثيف وسافر هو الذى أعقب الحروب الصليبية للانقضاض على الإسلام وتدميره بعيداً عن هدير المدافع وتفجير القنابل وصليل السيوف ، فأوروبا كانت فى مرحلة المراهقة الفكرية والحضارية حين غزت الشرق تحت راية الصليب . ولما عادت تلك الراية مجلّلة بعار الهزيمة تراجعت أوروبا عن مغامرة الحرب الساخنة إلى الحرب الباردة علّها تحقق من خلالها ما فشلت فيه جيوشها .

* *

● ثمار الغرس :

قلنا من قبل إن الاستشراق كان له مهمتان : خارجية تتمثل فى بث كل الشكوك حول حقائق الإسلام بين مثقفى العالَم الإسلامى ، وداخلية تتمثل فى تشويه حقائق الإسلام بين الشعوب المسيحية وشبابها . وقد أثمرت غروس المستشرقين فى المهمة الداخلية إثماراً سريعاً . والفقرة الآتية تصوِّر تلك الحقيقة فى وضوح :

« ... إلا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ولكنه كان قبل كل شئ ، وفى مقدمة كل شئ شراً ثقافياً . لقد نشأ تسميم العقل الأوروبى عما شوَّهه قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ، ومُثُله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . فى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوروبيين من أن الإسلام دين شهوة وعنف حيوانى . وأنه تمسك بفروض شكلية وليس تزكية للقلوب أو تطهيراً لها . ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفى ذلك الحين أيضاً نبز الرسول « محمد » بقولهم : كلبى » [1] .

* *

● إتجاهات الاستشراق :

من الإنصاف أن نُخرج من حديثنا هذا نوعاً من الاستشراق . وهو الذى قام على مبادىء نزيهة فأقبل على دراسة حضارة الشرق حباً فى العلم والاستطلاع أو التزموا مبدأ الحياد فى بحوثهم سواء أدَّت إلى صواب خالص أو صواب مشوب بخطأ أو حتى أدَّت إلى خطأ خالص ، فما دامت نيَّاتهم تخلو من تعمد الإساءة فهم مجتهدون برآء . ومن هؤلاء مَن أخرج عملاً مقبولاً فى مجال تحقيق المخطوطات الإسلامية العربية والتعليق عليها ، أو عمل فهارس لبعض العلوم الإسلامية كالحديث ، ومصادر التراث . ومنهم مَن سحره الإسلام بما فيه من قِيَم

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٨

وروائع فاعتنقه عقيدة وشريعة . ومنهم مَن اكتفى بالثناء عليه واعترف بدوره الحضارى العالمى ثم ظل على عقيدته . وقد قدَّمنا صوراً من شهاداتهم عند حديثنا فى بدء هذه الدراسة عن منصفى الإسلام من علماء الغرب ومستشرقيه مثل « چورچ سارتون » و « برنارد شو » و « نهرو » وغيرهم ، وفيما عدا هذا النوع فإن للاستشراق مدارس واتجاهات تتمثل فى الآتى :

الاتجاه النصرانى ، وله فرعان : كاثوليكى وبروتستانتى . ومع اختلاف الفرعين فى التصور والاعتقاد فإن هدفهما واحد هو محاربة الإسلام .

الاتجاه اليهودى : وهدف هذا الاتجاه هو التمهيد لمطامع الصهيونية العالمية ، والتى أهمها عندهم إقامة الحكومة الكونية أو مملكة الكون التى يكون اليهود فيها هم السادة . وغيرهم هم العبيد .

الاتجاه الإلحادى الأوروبى : ويمثل هذا الاتجاه الملحدون الغربيون الذين لا يؤمنون بدين قَط ، وعملهم محصور فى نشر الفكر الإلحادى من حيث هو لا باعتبار انتمائه إلى كتلة سياسية معيَّنة .

الاتجاه الإلحادى الشيوعى : والفرق بينه وبين الإلحاد الغربى أن الأول يمهد لسيطرة الشيوعية على جميع شعوب العالم ، كما بشَّر بها « ماركس » من قبل .

* *

● أهداف الاستشراق :

تلتقى أنواع الاستشراق الأربعة ، التى أوجزنا الإشارة إليها فى هدف واحد : هو التدمير والفساد والإفساد . وبعضها يوجِّه نشاطه ضد الإسلام خاصة ، وهو الاستشراق النصرانى بفرعيه . أما الاتجاه اليهودى أو الأوروبى أو الشيوعى فهذه الأنواع الثلاثة موجَّهة ضد المسلمين وغير المسلمين ، اللَّهم إلا الاتجاه اليهودى فإنه يوجِّه نشاطه لهدم الدين بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين معاً . وإن كان يهادن المسيحية - الآن - فإن ذلك يرجع إلى ظروف سياسية معلومة .

* *

● محاور انقضاض المستشرقين على الإسلام :

لم يترك المستشرقون ثغرة يمكن الوثب منها على الإسلام إلا وقد وثبوا منها . ومن ذلك :

(أ) القرآن نفسه وقد أثاروا حوله عدة شُبهات وأباطيل .

(ب) صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم وقد أثاروا حوله لغطاً كثيراً .

(جـ) عقائد الإسلام - الأصول والفروع - وقد أثاروا حولها مطاعن مختلفة .

(د) صحابة الرسول ﷺ ورضى الله عنهم ، وقد حاولوا تشويه سيرتهم فى صور متباينة .

(هـ) التاريخ الإسلامى بصفة عامة . وقد وجدوا فيه مادة صالحة للتحريف وإشاعة الريب حوله .

(و) قِيَم الإسلام عموماً . فقد تعمدوا الانتقاص من شأنها ، وأكثروا الغمز واللمز حولها .

(ز) بعض التشريعات الإسلامية ، كتعدد الزوجات ، والزكاة وبعض العبادات كالطواف حول الكعبة . والطهارة الترابية « التيمم » .

(ح) محاربة اللغة العربية الفصحى وإحلال العامية محلها بدعوى صعوبة الفصحى وعدم ملاءمتها للحياة المعاصرة .

(ط) الزعم بأن ما فى الإسلام من حق إنما هو مأخوذ عن مصادر أخرى غير إسلامية ..

(ى) الادعاء بأن الإسلام استنفد أغراضه ، ولم يعد صالحاً لمواكبة الحياة .

(ك) نقد منهج الترغيب والترهيب فى الإسلام ، علماً بأن ما نقدوه منه موجود فى الديانتين اليهودية والنصرانية بما لا يسمو إلى ما سما إليه الإسلام .

(ل) السعى الدءوب لتمزيق وحدة المسلمين بحيل ماكرة . وبدائل تنافى أسس الدعوة إلى الوحدة العامة فى الإسلام . كالجنس والوطنية ، ثم إثارة النعرات الطائفية فى الوطن الواحد .

(م) اتهام الإسلام بأنه كان السبب فى نظام الرِّق ، وجعله مسرحاً لإشباع الرغبة الجنسية ..

(ن) تزيين الخروج عن الإسلام بأوصاف برَّاقة كالتحرر والمعاصرة وإطلاق الوصف الذميم على المتمسك بدينه (الإسلام) مثل الرجعية والتزمت .... وهكذا .

* *

● أخصب الحقول :

لكل من المبشِّرين والمستشرقين ميادين مختارة ، وحقول خصبة يعملون فيها ، وهى إجمالاً كل ما يؤثر فى عقول المسلمين . بَيْدَ أن الحقول التى يعملون فيها متفاوتة فى الخصوبة والأهمية فى الواقع من فريق إلى فريق .

فأخصب الحقول عند المبشِّرين الإرساليات التعليمية والمؤسسات الخيرية التى يبثونها فى بلاد الإسلام فى شكل خدمات ومساعدات تنفق عليها الدول المسيحية والاتحاد العالَمى للكنائس ، وتُسهم هيئة اليونسكو أحياناً ، إذا كان المشروع الخدمى ذا صبغة ثقافية . وتقوم فى مدينة بألمانيا الغربية الآن مؤسسة تبشيرية عالَمية ، سموها « مركز الشبيبة » ، ولها أفرع فى بعض العواصم الغربية ، وتعتمد هذه المؤسسة فى ممارسة مهماتها على إصدار الكتب وأشرطة الكاسيت والنشرات ومراسلة الشباب المسلم فى كل مكان بادئين معهم باليسير ثم تتدرج رويداً رويداً فى جذب « الضحية » ولا مانع عندهم أن يرسلوا له دعوة مجانية التكاليف لزيارة المركز أو أحد فروعه إذا وجدوا فيها استجابة صادقة لما يدعونه إليه من خلال الرسائل المتبادلة بين المركز وبين الضحية .

ولدينا براهين خطيَّة وكتب من أعمال المركز ، وقد قمنا بدراسة نقدية لشبهات أوردوها فى أحد مؤلفاتهم وأقمنا قواطع الأدلة على زيف القوم وافتراءاتهم على الإسلام [١] .

ومن صور تدرجهم مع بعض الشباب أنهم طلبوا منهم تحرير رسائله إليهم بالإنجليزية بدلاً من العربية (؟) علماً بأنهم بدأوا هم كتابة الرسائل إليهم بالعربية .. (؟!) .

أما أخصب الحقول عند المستشرقين فهى الجامعات ودور التعليم العالى ووسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية . وتؤدى الجامعات خدمة جليلة للاستشراق من ناحيتين إحداهما أهم من الأخرى :

الأولى : إذا أتيحت الفرصة لأحد المستشرقين بالعمل فى إحدى الجامعات العربية الإسلامية أو العربية فقط . فنحن نعلم أن المستشرقين « مرجليوث » و « كازانوفا » عملا أستاذين فى الجامعة المصرية حين نشأتها عام ١٩٠٨ وكان من آثارهما المنهج « العلمانى » الذى نادى به تلميذهما « الوفى » الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى صودر بمعرفة السلطات المصرية عام ١٩٢٦ لما أحدث ثورة عنيفة عليه فى مصر وفى خارج مصر من البلاد الإسلامية . ثم عاد فبثَّ شيئاً من مبادئهما فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » عام ١٩٣٨ ، وسيأتى الحديث عن الدكتور طه حسين باعتباره أحد عملاء التبشير والاستشراق فى مصر حين تحين مناسبته فى هذه الدراسة .

أما الجامعات العربية - غير الإسلامية - فأهمها الجامعات الأمريكية فى مصر وفى بيروت .

وعيب هذه الجامعات (الأمريكية وما على غرارها) أنها تتجاوز مهمتها المأذون لها بها وتزج بأنفها فى أمور لا صلة لها بها . وفى مقدمتها مهام

---

(١) الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى ، دار الوفاء بالقاهرة .

الاستشراق والتبشير . فالجامعة الأمريكية فى مصر قد أصدرت كتاباً ضخماً باللغة الإنجليزية ، جعلت عنوانه « مصر المسيحية قديماً وحديثاً » ومادة الكتاب كلها وقف على الطابع المسيحى لمصر من أقدم العصور إلى تاريخ طبع الكتاب (فى أوائل الثمانينات) وكل فصل من فصوله مدعوم بصور الكنائس والمعابد والأديرة . وخرائط فرعية موضحة بالإضافة إلى خريطة لمصر وخرائط لشبكة المواصلات الحديدية ، وتركيز على المواقع التى بها آثار قبطية كالواحات والفيوم ووادى النطرون . ومع أن الكتاب بلغ عدد صفحاته أكثر من سبعمائة صفحة من القطع الكبير فإنه يخلو من الحديث عن الإسلام الذى أظل مصر أكثر من أربعة عشر قرناً . اللّهم إلا فصلاً صغيراً جعلوا عنوانه : « الفتح العربى بقيادة عمرو ابن العاص » .

ومما يدعو إلى الريبة أن الكتاب لا يُباع فى مصر إلا داخل أسوار الجامعة الأمريكية بمصر ، وقد صُدِّر الكتاب إلى عواصم الدول المسيحية . فقد شاهده صديق لنا بمكتبات لندن .

وقد عُرِض الكتاب على لجنة التعريف بالإسلام ، إحدى لجان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وكلّفت اللجنة أحد أعضائها الدكتور محمود دياب أحد أساتذة طب الأنف والأذن والحنجرة ، وله نشاط عريق فى خدمة الدعوة ، كلّفته اللجنة - وكنت أحد أعضائها - بتقديم تقرير واف عنه . وتبيَّن من التقرير أن الكتاب يحمل بين طيّاته خطراً على « الوحدة الوطنية » ويهدد أمن مصر وسلامها . وقال : إن الكتاب حملة بالغة الخطورة يخاطِب بها مؤلفوه أقباط مصر ، ويدعونهم إلى ترقب ساعة الخلاص « فالليل المظلم لا بُدَّ أن يعقبه فجر جديد » (؟!!) .

ولدينا نسخة من هذا الكتاب بلغته الأصلية .

*

● مدعاة للتساؤل :

والغريب حقاً أن هذا الكتاب - على خطورته - طُبِع بمعرفة الهيئة العامة للكتاب ، وعلى مطابعها . وعلى صفحته الأخيرة ترقيم دولى من دار الكتب المصرية . وهذا يثير فى النفس تساؤلاً لحوحاً : كيف تُصرِّح المؤسسات الحكومية بطبع ونشر وتوزيع هذه الكتب . وهو ضد مصالح الدولة العليا ؟!

أما الجامعة الأمريكية فى بيروت فهى أكثر خطراً من سميتها فى القاهرة . وسيأتى الحديث عنها فى فصل لاحق بإذن الله .

* *

● نقل المواجهة إلى الداخل :

عرفنا مما سبق أن المبشِّرين وكثيراً من المستشرقين يعملون داخل البلاد الإسلامية التى كانت واقعة تحت وطأة الاستعمار أو ما تزال آثاره سائدة فيها . وكانت أوروبا قد بدأت مواجهتها للإسلام من الخارج فى شكل حروب وغارات انتهت بعد أن فتحت الأبواب أمام كيدها للإسلام عبر الحروب الباردة (الساخنة) التى تُشَن الآن على جميع الجبهات .

وكان السبب فى تغيير ذاك الاتجاه وتفضيل محاربة الإسلام والمسلمين من الداخل نصيحة مخلصة وجهها إلى قومه صليبى عجوز عقب الحروب الصليبية .

وقع لويس التاسع (الصليبى العجوز) فى الأسر فى الحروب الصليبية الأولى فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وسُجِن فى أحد سجون المنصورة مدة . ثم أُطلق سراحه وعاد إلى فرنسا بعد أن عاين وشاهد قوة المسلمين فى الدفاع عن حرماتهم ، وقد حَلَّ بالصليبيين ما حل . فكَّر ذلك الصليبى العجوز فى أسلوب آخر للمواجهة يفلح فى تدمير المسلمين . ثم اهتدى إلى البديل وهمس فى أذن قومه قائلاً : « إن التغلب على المسلمين بقوة السلاح وحده أمر غير ممكن . وإن على أوروبا إذا أرادت التغلب على المسلمين أن تحاربهم من

داخل أنفسهم (؟!) وأن تقتلع العقيدة الإسلامية من قلوبهم (؟!) فهذا هو الطريق » [١] .

هذه النصيحة يمكن أن نعتبرها هى الأساس فى تعديل أسلوب مواجهة أوروبا للإسلام والمسلمين من الحروب المسلّحة إلى الحروب الباردة . وفى داخل بلاد المسلمين .

*

● خطوات التنفيذ :

وقد تم تنفيذ هذا التوجيه على مرحلتين فيما أرى :

الأولى : مباشرة جيوش المبشّرين والمستشرقين نشاطهم عَبْر المحاور التى تقدّم الحديث عنها . المبشّرون بالاندساس فى المجتمعات الإسلامية ، والمستشرقون بالكتابة والتأليف والنشر ، ثم بث مؤلفاتهم فى الأوساط الثقافية فى المجتمعات الإسلامية . هذه هى المرحلة الأولى من تنفيذ توجيه لويس التاسع .

أما المرحلة الثانية : فهى تجنيد بعض المسلمين من الحكّام والمفكّرين وصبغهم صبغة غربية اعتقاداً وسلوكاً ثم مساعدتهم على ارتقاء المناصب الحسّاسة فى البلاد سياسياً وفكرياً وإعلامياً وتربوياً لكى يكونوا منفذّين مخلصين أمناء لمناهج الغرب فى البلاد الإسلامية وهم فى مكان الصدارة من بنى جنسهم ودينهم . وقد سبق لنا ذكر ما قاله « كرومر » حين خروجه من مصر بعد رعاية المخطط البريطانى فى مصر سنين طويلة فقد قال : « سنرحل عن مصر ، وسنحكمها برؤوس مصرية وفكر أوروبى . أى أن الاستعمار المادى سيرحل عن مصر . أما أثره الفكرى فباق فى أشخاص مصريين . وهم الذين سيحكمون مصر بفكرنا المعادى للإسلام نيابة عنا » [٢] .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ص ٥٧٦

(٢) انظر : عقبات فى طريق الدعوة - للأستاذ أنور الجندى .

وليس معنى هذا أن دور المبشِّرين والمستشرقين قد انتهى بوجود العملاء الوطنيين . كلا ، إنهم باقون . وأقرب مثال لوجودهم أنهم بمثابة مُلقنين يقبعون وراء الكواليس يملون على عملائهم ما يقال . فالعملاء الوطنيون يرددون ما قاله وبقوله أولئك المحرِّكون لهم من وراء الكواليس . وفى ذلك خطر وأى خطر ؟! وسوف يتضح لنا أن كل ما يقوله المفتونون منا ما هو إلا فكر مستورَد ليس لهم فيه إلا الحكاية وحبكة الإخراج . وما يزال هؤلاء العملاء يؤدون أدوارهم المرسومة ، ومنهم مَن يتصدر قطاعات هائلة فى بلاده فى مجال الحكم أو الثقافة ، أو التعليم أو الإعلام ، وهم - بالطبع - لا يروِّجون باطلاً إلا بعد أن يلبسوه ثوب الحق ، ليكون ذلك لهم معواناً على الجهر به وفرضه على الناس من موقع المسئولية العليا بحسب المنصب الذى يشغلونه فى إدارة البلاد . وتلك هى الطامة الكبرى . إذ لم تُبْتلَ الأمة بمصيبة أخطر من أن يتولى أمورها أو بعض أمورها أناس تربُّوا على غير موائد أمتهم فآمنوا بقِيَمٍ غير قِيَمها ، وخصوا بولائهم قِبْلةً غير قِبْلةِ أمتهم وخدموا أغراضاً لأعدائها ثم احتموا بالمنصب فأساءوا القول والعمل وأحلُّوا الأمة دار البوار ؟!

وليس بلازم أن تكون المناصب التى اعتلوها واحتموا بها مناصب سياسية أو إدارية ، فقد تكون مناصب أخرى أدبية أو اجتماعية ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قِبَله العذاب ؟

والآفات التى تُسلَّط على الأمة من الداخل أصعب مقاومة بكثير من الآفات الوافدة . وهذا ما قدَّره الصليبى العجوز « لويس التاسع » كما مَرَّ بنا من قبل .

وهؤلاء العملاء يؤدون أدوارهم من خلال محورين : أحدهما : إيجابى بعرض ما ليس فى مصالح الأمة من قِيَم وسلوكيات فى ثوب كثيف من التمويه والتزييف .

والثانى : سلبى . حيث يقاومون كل دعوات الإصلاح بما أُوتوا من قوة ويرمون الدعاة إليها بالجمود والتخلف والتزمت والرجعية . وقد يُوقِعون الأذى

الجسمانى والأدبى بالدعاة إلى الإصلاح على أسس المنهج الذى لا يصلح حال الأمة إلا به .

ومَن يعود إلى الوراء قليلاً يجد أن ما من قيمة من قِيَم الإسلام إلا وقد ووُجِهَت من الداخل على أيدى العملاء ، وحُوولَ وضع بديل مكانها ، لتنحل عُرَى الإسلام عُروة عُروة . والهدف إشاعة روح التخاذل بين المسلمين ، والشعور بالنقص دائماً . وكفى بذلك داءً لا أقول يصيب الأمة بالخور فحسب ، بل إنه يمحوها من الوجود محواً إذا قُدِّر له - لا سمح الله - المضى حتى النهاية ، ولم يتصد له رجال يعاهدون الله على نُصرة دينه ولو أدَّى بهم الأمر إلى الاستشهاد فى سبيله . فإذا تخاذل مسلمو العصر عن نصرة دين الله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

هذا وعد الله ، ووعد الله صدق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

وهذه سُنَّته فى الذين خَلَوا من قبل : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) .

* *

● الإعداد لمباشرة العمل :

بقى أن نذكر فى إيجاز خطوات المبشِّرين والمستشرقين التى أعدُّوها لمباشرة العمل وتيسيره لمن يُستعان بهم فى ممارسته . فالقوم مخلصون لمهتهم متفانون فى تأديتها على أكمل الوجوه التى تحقق لهم رغباتهم . ولما كان اللسان العربى (اللغة العربية) هو وعاء الإسلام ، وكان اتساع نطاق المواجهة بين الإسلام وخصومه يتطلب الاستعانة بطاقات هائلة من البَشر ممن لغتهم غير

---

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الرعد : ٣١ (٣) الفتح : ٢٣

العربية . وأن الشعوب الإسلامية التى أُريد غزوها ليست لغتهم لغة المبشِّرين والمستشرقين ، وكان هذان الاعتباران يصنعان حاجزاً مزدوجاً بين جيوش المبشِّرين والمستشرقين وبين الإسلام نفسه من جهة ، وبين فَهْمِ أعمال المبشِّرين والمستشرقين وبين الشعوب الإسلامية من جهة أخرى . فكان لا بد من عملين يقوم بهما المبشِّرون والمستشرقون لكسر هذين الحاجزين . وفعلاً قد تم ذلك على النحو الآتى :

العمل الأول : كان العمل الذى أعدوه لإدارة المعركة ضد الإسلام هو المزيد من معرفة الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وتشريعات وسيرة وتاريخاً . وغرضهم من هذا هو البحث فى « صَرْح الإسلام » عن ثغرات يُصوِّبوا الهجوم عليه منها ، ومن البدائه أن أى ناقد لا بد أن يعرف دقائق الأمر الذى يريد أن ينقده . لأن الحكم على الشئ فرع عن تصوره . فإقبال المبشِّرين والمستشرقين على معرفة الإسلام لم يكن حباً فى العلم به ، ولكن ليتمكنوا من الكيد له والانتقاص من شأنه ، وتشويه حقائقه . وقد سلكوا لتذليل هذه الصعوبة مسلكين :

أحدهما : ترجمة أهم المصادر الإسلامية ، وفى مقدمتها القرآن الكريم وهو أول ما بدأوا به . فقد رعى « صاحب القداسة بطرس » أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم . كما ترجموا ما لا حصر له غير القرآن من مصادر الشريعة والتراث وكتب السيرة والتاريخ ، كما اهتموا بتحقيق النصوص العربية والإسلامية وقاموا بترجمتها إلى اللغات الأوروبية ليسهلوا درسها وفهمها ، ثم إساءة استعمالها فى مجالى التبشير والاستشراق معاً . ومما يتصل بهذا الجانب عقد المؤتمرات الدولية . وسيأتى حديث خاص عنها .

المسلك الثانى : الاهتمام بتعلم اللغة العربية للأفراد الكبار ثم لطلاَّب الجامعات . فقد تقدمت الإشارة إلى أن بعض المبشِّرين والمستشرقين بذلوا جهداً فى تعلم اللغة العربية ليمكنهم الاطلاع على معارف الإسلام .

أما بالنسبة لطلاَّب الجامعات فقد قرر مجمع ڤيينا سنة ١٣١٢ م إدخال اللغة العربية فى جامعات : باريس - بولونيا - اكسفورد - سلمنكا ، كما عمل « فرنسيس الأسيزى » على إدخال تعليم اللغة العربية فى المعاهد المسيحية فى الدراسات العليا . وقد اعترف بأن عمله هذا كان من أجل خدمة الكنيسة والتبشير وليس عملاً علمياً بحتاً .

وفى ١٦٣٦/٥/٩ م أنشئ كرسى للغة العربية فى جامعة كمبردج . وقد تضمن قرار إنشائه عبارة تُفصح عن المراد منه :

« ولكنّا نهدف .. إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة .. وإلى تمجيد اللّه بتوسيع حدود الكنيسة ، والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون إلى الآن - يقصد المسلمين - فى الظلمات » [١] .

وفى إنجلترا أدخل تعليم اللغة العربية فى جامعتيها لهذا الغرض كذلك .

العمل الثانى : ترجمة كتب المبشِّرين والمستشرقين والأناجيل إلى اللغة العربية : تغلب خصوم الإسلام على الصعوبة الأولى بالاهتمام بتعليم اللغة العربية وتعليمها لطلاَّبهم فى الجامعات فأفسحوا أمامهم الطريق لدراسة الإسلام بهدف الكيد له .

أما « الصعوبة الثانية » التى تحول دون فهم عملهم بين الشعوب الإسلامية فقد تغلَّبوا عليها بالترجمة إلى اللغة العربية . وبخاصة مختارات من الأناجيل ليسهلوا على ضحاياهم من المسلمين سرعه فهمها والتأثر بها .

* *

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : د . محمد البهى ص٥٨٣ - ٥٨٥

● خطآن نقع فيهما :

ونساعدهم - نحن المسلمين - فنترجم الكثير من أعمال المستشرقين حباً فى العلم . وإعجاباً بما كتبوا أحياناً . وهذا فى جملته عمل محمود حتى تتاح الفرصة لمن لا يعرفون لغات المستشرقين من أبناء الإسلام بالاطلاع على ما كتبوا ، لأنهم لم يتركوا مجالاً حيوياً من مجالات الفكر الإسلامى إلا ولهم فيه تأليف . ولكننا نرتكب خطأين فى هذا المجال - بقصد أو بغير قصد - أحد الخطأين نبَّه عليه المفكر الإسلامى العالمى الأستاذ أبو الحسن الندوى . أما الخطأ الثانى فقد لفت أنظارنا إليه ما أتيح لنا قراءته من ترجمات إسلامية لبعض مؤلفات المستشرقين . ونشير إلى الخطأين هنا فى إيجاز آملين التخلص منهما حتى يكون ما نترجمه عنهم مفيداً حقاً وخالياً من الضرر .

الخطأ الأول : كان الأستاذ الندوى موفَّقاً كل التوفيق فى محاضرته القيمة : « الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين » وقد أشار الأستاذ الندوى إلى بعض مؤلفات المستشرقين التى كثر تداولها فى أروقة العلم والثقافة فى العالَم الإسلامى ، ثم قال : « ومما يدل على ضعف العالَم الإسلامى والعالَم العربى وفقد وسائلهما العلمية أن هذين العالَمين يعتمدان على مؤلفات المستشرقين فى المواضيع الإسلامية الخالصة .. ويُخيَّل إليهم أنه مما ينفرد فى موضوعه ، ويُعَد مصدراً علمياً له أهميته وقيمته لجامعات الشرق فى قسميها العربى والإسلامى ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين فى قسم الدراسات الإسلامية فى الجامعات » [1] .

يريد الأستاذ الندوى أن يقول : إن اعتماد العلماء المسلمين على نتاج المستشرقين قد أغراهم على الاسترخاء والكسل من ناحية حيث اكتفوا بها واعتبروها مادة علمية فريدة فى موضوعها ، وسليمة من الخطأ فى حقيقتها . مشيراً فى موضع آخر أن جلَّة المستشرقين قد يدسون مقداراً من « السم » فى أعمالهم . وهذا يدعو إلى التحفظ والحد من الثقة المفرطة فيهم .

---

(١) المحاضرة ص ١٨ - ١٩

ثم يدعو الأستاذ الندوى إلى أن تخضع كتابات المستشرقين حين نترجمها إلى اللغات الإسلامية إلى فحص ومحاسبة دقيقة على أسس علمية صحيحة حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم وأخطائهم فى فهم النصوص وبيان المعنى [1] .

وهذا توجيه صائب حبذا لو وضعه المسئولون عن الأمانة العلمية والتوجيه العلمى عندنا فى الاعتبار .

وقد فطن أستاذنا المرحوم عباس محمود العقاد من قبل إلى ما دعا إليه الأستاذ الندوى . فكتب مقالاته القيمة « ما يقال عن الإسلام » فى مجلة الأزهر حين كان مديراً لتحريرها . ثم طُبِعت فى كتاب بهذا الاسم فيما بعد .

وكان المرحوم العقاد يتناول فى كل مقال مؤلَّفاً من عمل المستشرقين عن الموضوعات الإسلامية التى كثر تناولهم لها . ثم يلخِّص ما فى المؤلَّف من أفكار . ثم يكتب تعقيباً نقدياً عليه مبيِّناً ما فيه من صواب ، ومفنِّداً ما فيه من أخطاء . وبوفاة العقاد توقف هذا العمل فى مجلة الأزهر وإن تابعه الدكتور الأهوانى قليلاً .

ولصديقنا الأستاذ أنور الجندى إسهام فى هذا المجال فى كتابه « سموم المستشرقين » . وأياً كان الأمر فإن ما دعا إليه الأستاذ الندوى ينبغى أن يكون له أقسام متخصصة فى الجامعات الإسلامية والعربية .

الخطأ الثانى : لحظنا فى بعض الأعمال المترجَمة - إسلامياً - أن المترجم يقف عند حدود النقل إلى العربية دون أن يكتب فقرات فى الهامش عن التصورات المخطئة التى يقع فيها المؤلف صاحب النص موضوع الترجمة . وهذا - فيما أرى - قصور واضح فى أعمال المترجمين . فعلى سبيل المثال وقع « كارل بروكلمان » فى خطأ شنيع فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » حيث يرى أن محمداً ﷺ لم يقل إنه رسول من عند الله إلا بعد أن لمس رواج دعوته فى

---

(١) المرجع السابق ص . ٢

شبه الجزيرة . ثم خُيِّل إليه أن ما يقوله قرآن موحىً به من عند اللّه ، فجاهر بأنه رسول (؟!) .

هذا الخطأ الشنيع سواء أكان متعمَداً أو كان سببه جهل المؤلف لم أجد إشارة للتنبيه عليه من الأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار وله مساعدون فى هذا العمل .

ومثال آخر كتاب « حضارة العرب » لـ « چوستاف لوبون » الذى ترجمه المرحوم زعيتر ونشرته دار إحياء التراث (عيسى البابى الحلبى) بالقاهرة . ورد فيه خطأ متكرر مرات من المؤلف بأن القرآن من تأليف « محمد » ﷺ (؟!) وقد مَرَّ المترجم على هذا الخطأ مرور الكرام دون أن يكتب أى تعليق عليه فى أى موضع من المواضع التى ورد فيها .

وهذه الأخطاء المسكوت عنها من « المعرِّبين » أخطاء ظاهرة لا تحتاج إلى متخصص فى علوم الدين ليكتشفها ثم يقوم بالتنبيه عليها . فتركها بدون تصويب يلقى باللائمة على السادة المعرِّبين ولا يُجدى عنهم أى دفاع .

* *

● هيئات متعاونة :

ونقترح - هنا - اقتراحاً آملين أن يجد آذاناً صاغية . وملخص هذا الاقتراح أن تتم ترجمة ما نرى ترجمته بواسطة هيئة علمية متعاونة متكاملة ، يكون بها أعضاء متمكنون من اللغة المترجَم عنها ، ثم إذا كان الكتاب موضوع الترجمة واحداً من العلوم الشرعية وجب أن يكون بالهيئة متخصصون فى تلك العلوم يقرأون النص العربى المترجَم ، ويصوِّبون - هامشياً - ما فيه من أخطاء مع إبقاء المادة المترجَمة كما هى حرصاً على أمانة النقل .

وإذا كان الموضوع لُغوياً اشترك فى العمل متخصصون فى العلوم اللُّغوية ليقوموا بنفس الدور . وهكذا إذا كان الموضوع تاريخياً . إلخ ... إلخ . على أن لا يتم اختيار عمل ما للترجمة إلا بعد تقديم تقرير عنه من متخصصين فى لغة

المؤلف فإذا كان فيه إضافة حسنة للمعارف والعلوم أقررنا ترجمته .. وإلا وَفَّرْنا الجُهد والمال وأعرضنا عنه وبذلك نتجنب الأخطار والسموم التى يدسها المستشرقون فى كتاباتهم عن الإسلام والشرق .

* *

● المأمون وهذا الاقتراح :

ومن الطريف - حقاً - أن الخليفة المأمون العباسى حين أنشأ « دار الحكمة » استعمل فى نقل الكتب إلى « العربية » مَن يجيدون اللغتين المترجَم عنها والعربية من السريان وغيرهم . ثم أنشأ هيئة علمية من فضلاء المسلمين تقرأ النص العربى المترجَم وتقوم بتنقية المادة المترجَمة من الأخطاء والأضرار التى تتجافى والقيَم الإسلامية ، والاقتراح الذى نتقدم به هنا ما هو إلا إحياء لما سبق أن قام به المأمون مع تعديل نراه ضرورياً . وهو ما أشرنا إليه من قبل من أن تبقى المادة المترجَمة كما هى فى صلب الكتاب .. ويكون التصويب تعقيبات وتعليقات تُثبَت فى الهوامش .

ويبلغ الحرص مداه ، والوعى غايته إذا عملنا على إصدار كتاب متتابع نرصد فيه الأخطاء الجسيمة التى يقع فيها المستشرقون وخصوم الإسلام ، وننقدها نقداً علمياً وموضوعياً ، ونُسهِّل وصول هذا الكتاب إلى أيدى الشباب لنحميهم من الانخداع والشكوك . ونضع أقدامهم على الطريق الصحيح .

* *

● مؤتمرات المستشرقين :

من المحاور الحيوية جداً ، والخصبة جداً التى اتخذها المستشرقون للنفاذ إلى أهدافهم : عقد المؤتمرات الدولية ، كما اتخذها المبشِّرون من قبل . بَيْدَ أن الفَرْق كبير بين مؤتمرات المبشِّرين ومؤتمرات المستشرقين . وإن كان الهدف واحداً هو : التربص بالإسلام والمسلمين بغية الإطاحة بهما معاً .

فمؤتمرات المبشِّرين إنما هى بمثابة « غُرف عمليات مغلقة » كل أعضائها من أهل المهنة (التبشير ضد الإسلام) وليس من المستساغ أن يُدْعى لحضورها أعضاء مسلمون .

أما مؤتمرات المستشرقين فهى مجال مفتوح أمام المسلمين وغيرهم ؛ لأنها تعمل تحت شعار ديبلوماسى . وموضوعاتها تسمح بدعوة المسلمين إليها والمشاركة فيها ؛ لأنها موضوعات مُعَدَّة بذكاء شديد ، وكثيراً ما تكون هذه الموضوعات « إسلامية صِرفة » تُدرس بواسطة جميع الأطراف بعد أن يُختار لها ظاهراً براقاً هو بمثابة « الطُعم » الذى يقود الفريسة إلى « المصيدة » . وهذا ما سيظهر لنا من العرض الوجيز الآتى ...

* * *